أليسو رومنزي رأى العنف الأعمى في حمص والقُصير

«يحدث الآن...».. يوميات القتل

جنودٌ من «الجيش السوري الحرّ» يسترقون الهدوء خلال نوبة حراسة، في بلدة القصير. وجه والدة تالة يثرب الذهبي، بعدما ماتت تالة. مواطنون يفرّون في حقل، بينما الكاميرا تلهث معهم ووراءهم. جندي مجروح يتلقى علاجاً مرتجلاً في غرفةٍ مرتجلة فيها مصل. تظاهرة ضد النظام السوري، فيها الوجوه وقبضات الأيدي، وفيها ثلج يتهادى كالقطن. في القصير، تُثلج الدنيا. الدمار يتشابه، كما الوجوه، أينما حلّ العنف والظلم. وتتوالى صورهما كلما تقدّم المرء في معرض «يحدث الآن... ألم نقل ذات يوم: هيهات أن يتكرر ذلك؟»×، للمصور الفوتوغرافي الإيطالي أليسو رومنزي.

تتوالى الصور، ليدخل المرء في حالة من الصمت الخانق، تجاه يوميات تزداد وطأتها عندما تستعرضها الصور خارج السياق الخبري. صورٌ تضع الفرد المتفرّج عليها، في مواجهة الفرد المتعرّض لها. إنسانٌ في مواجهة إنسان، فتضحي الوطأة خانقة كاللحظة الاستثنائية، وسارية كالأيّام المتتالية، في آن.

مقاتلٌ يقف متأهباً، وترسم سماته علامات الانتظار. صلاةٌ على روح شاب سقط قتيلاً، اسمه محمد بكور، وعمره ١٤ سنة. المستشفى الميداني، والموتى على بابه. النساء يبكين رجلاً رحل، عينٌ يغطيها شاش وعينٌ تملأها دمعةٌ فيها ثورة على الخبر، والحدث، والآن. مئذنةٌ كأنها معلّقة في السماء، تتجاور خطوطها مع سواد الليل وبياض الثلج، لا حضور للأرض في الصورة، فلا حضور للموت والدمار فيها إذاً. كأنها صورة جمالية حرّة، لولا حجم التوتر البادي فيها. توتر الأرض يطاول السماء.

دخل رومنزي حمص والقصير، كمصوّر حرّ يعمل منذ العام ٢٠٠٥، ويتعاون بشكل أساسي مع «وكالة الأنباء الفرنسية» و«الصليب الأحمر الدولي» ومنظمات الأمم المتحدة. عايش الأخطار العالمية الكثيرة، وطبعت صوره في أبرز المنشورات العالمية، مثل: «نيويورك تايمز»، و«هيرالد تريبيون»، و«لوس أنجلس تايمز»، و«نيوزويك»، و«واشنطن بوست»، و«تايم»، و«لو موند»، و«لو فيغارو»، و«دير شبيغل»، و«إيل باييس»، ... يقول: «في ليبيا، كان هناك مقاتلون في مواجهة مقاتلين آخرين. هنا، يتواجه مقاتلون من الجانبين أيضاً، لكن معظم القتلى من المدنيين... الناس هنا يُقتلون خلال حياتهم اليومية».

طبيبٌ يتجهّز لإخضاع جسم مصاب لعملية جراحية. في الملجأ، تتجاور النساء مع الأطفال، فيتجاور القهر الواعي مع ابتسامة تستشعر حجم الخطر وتجهل كيفية التعامل معه. علم الثورة السورية يتدلى من سورٍ مرتجل على وجه مياه آسنة، لا شيء يعلو فوق الموت في أرضٍ غادرتها الحياة. الميّت والأحبة، من جديد. أطفال ومسنون. التشييع والآلاف خلف النعش، النعوش. الليل والأرض والأسلاك الشائكة، يزيدهم اختناقاً وهج الشمس البرتقالية، في المساء.

منذ بدء الثورات العربية، حمل رومنزي كاميرته وانطلق إلى مصر، فليبيا، وصولاً إلى سوريا، حيث أطال بقاءه في القصير (بلدة في غرب سوريا، تقع ضمن نطاق محافظة حمص)، إذ ضاق الوقت الذي قضاه في حمص نتيجة تضخّم حجم الخطر فيها. يقول لمونيكا برغمان في مقابلة أجرتها معه في مطلع حزيران المنصرم: «لم تشهد حمص قتالاً بكل معنى الكلمة... في معظم الأحيان، اقتصر الأمر على العنف الأعشى.. كانت لحظة مغادرتي أصعب اللحظات إطلاقاً.. لم أتمالك من الشعور بالإثم».

قطع الحجر تتجاور على أرض ترابية، لتضحي شواهد قبور، بعدما خطّت يدٌ على كل منها اسماً لمواطن مات. وهنا، قدما رجل ينتظر الصلاة على جثمانه. وهناك، امرأة تشق طريقاً نحو ما تبقى من حياتها.

هي يوميات أهالي حمص والقصير، عاش المصوّر منها قدر احتماله، وعاد ليتخفف من ثقل ما رأته عيناه.

عاد ليروي عن أرضٍ تجاهد لاستعادة سياقٍ متحرّر من الموت ومن الظلم، في آن.

سحر مندور

(*) في «هنغار أم» في حارة حريك، مستمر حتى ٢٩ تموز الجاري، من الأربعاء إلى الأحد، من الثانية من بعد الظهر حتى الثامنة مساء

صورتان من المعرض

(بلال قبلان)